﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

[آل عمران: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين جزاء الكافرين بأشدّ العذاب، وبين مطلق علم الله الّذي لا تخفى عنه خافية

لَمَّا تحدَّثت الآية السَّابقة عن الجزاء المُعدِّ للّذين كفروا بآيات اللّه، ووصفته بالعذاب الشَّديد، وأنّه لا يمنع وقوعه أحد؛ لأنَّه صادرٌ عن عزيز يَقْهر، ولا يُقْهر، جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن تمام إحاطة علمه سبحانه بكلّ شيء، فهو يعلم القلوب، وما تخفيه، ويعلم بواعث كفر الكافرين ودواعيه؛ لأنَّ علم اللّه لا يحدُّه شيء، فلا يقف عند حدود الإنسان، بل وسع السّموات والأرض، وكيف يخفى عليه شيء وهو علّام الغيوب؟!وفي التّعبير بعدم الخفاء في قوله: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾، إشارة بليغة، إلى أنّ علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين، فهو الّذي أحاط بكلّ شيء علما[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَخۡفَىٰ﴾: من (خَفِيَ) أَصْلٌ يدلُّ على السَّتْرِ[2]، خَفِيَ الشّيء خُفْيَةً: استتر[3]، والخفاء ما يُستر به الغطاء، ويقابل الإخفاء الإعلان والإبداء، قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، وقولهم: (وهل يَخفَى القمر؟)، تُقالُ للتّدليل على وضوح الأمر، أو على شهرة الشّخص، وأخفى الصَّوتَ: كتمه، يقال: (أخفى المصلِّي قراءته)، وفي القرآن: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1][4]، والمراد هنا: أنّه مُطَّلع على كفر من كفر، وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه[5].

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/175.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(3) الراغب، المفردات: (خفي).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفي).
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/255.

2) ﴿شَيۡءٞ﴾: الشَّيء، هو الّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبر عنه، ويقع على الموجود والمعدوم، وإذا جاء لفظ (شيء) في سياق النّفي؛ أفاد العموم[1]، "والشّيء هو الّذي يصحّ أن يعلم ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلّمين، هو اسم مشترك المعنى، إذ استعمل في اللّه وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وعند بعضهم؛ الشّيء: عبارة عن الموجود، وأصله مصدر شاء، وإذا وصف به تعالى فمعناه شاء، وإذا وصف به غيره، فمعناه المَشِيء، وعلى الثّاني قوله "﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]، والمشيئة من اللّه تقتضي وجود الشّيء، ولذلك قيل: (ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن) "[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في هذه الآية يستعرض السّياق قدرة اللّه، فيما أبدع من روعة، وما صوّر من مخلوقات بديعة، تبرزها آيات اللّه المبثوثة في ملكوت السّموات والأرض، وهي قدرةٌ محيطةٌ بكلّ شيء علمًا، وقد نظّمت القوانين الكونيّة الّتي تضمن، دقّة سير الكون وانسجامه مع الغايات الّتي خُلق من أجلها، وسُخّر لها[3]، و"هذه الآية تخبر عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، فَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ، فَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى إِلَهًا أَوِ ابْنَ إِلَهٍ، وَهُوَ تَخْفَى عَلَيْهِ الأشياء"[4]، "فَنَبَّهَتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ عِيسَى عَالِمًا بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ"[5].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ "استئنافُ كلامٍ سيق لبيان سعةِ علمِه تعالى وإحاطتِه بجميع ما في العالم من الأشياء التي من جملتها ما صدرَ

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (شيء).
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن، ص: 397.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/7.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/19.

عنهُم من الكفر والفسوقِ سرًّا وجهرًا"[1]، و"بَيَانٌ لِوَصْفِ الْحَيِّ؛ لِأَنَّ عُمُومَ الْعِلْمِ يُبَيِّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ"[2]، وجيءَ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ للردِّ على زعم النَّصارى في أُلُوهيَّة عيسى عليه السلام وبنوَّته، وذلك من خلال إثبات علمه الشامل الذي لا يَحُدُّه شيءٌ، أمَّا علم عيسى عليه السلام، فهو علم جزئيٌّ محدودٌ.

بيانُ سعةِ علمِه تعالى وإحاطته بكلِّ شَيْءٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بنفي الخفاءِ لا بإثباتِ العلم:

عبَّر النَّظمُ عن العلم بنفي الخفاءِ لا بإثبات العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فلم يقُل: إنَّ اللهَ يعلمُ كلَّ شَيْءٍ؛ "إيذانًا بأنَّ علمَه تعالى بمعلوماته – وإن كانت في أقصى الغايات الخفيَّةِ – ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارِنه شائبةُ خفاءٍ بوجهٍ من الوجوه كما في علوم المخلوقين، بل هو في غاية الوضوح والجلاءِ"[3]، فهي "خبرٌ عن إحاطة علم اللهِ بجميع الأشياء على التَّفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى، ولا لغيره، ففي ذلك ردٌّ على النَّصارى"[4]، وعلى كلِّ من يزعُمُ أنَّ مخلوقًا لا يخفى عليه شيءٌ، وفي ذلك ردٌّ على التَّهوّر الفكريِّ الذي ابُتلي به النَّاس في هذا العصر، من الوَهْمِ بأنَّهم قادرون على علم كلِّ شَيْءٍ.

الـرَّدُّ الضمنيُّ عـلى كـلِّ مَـنْ يَزْعُمُ قدرتَه على علمِ كلِّ شَيْءٍ

ثمَّ إنَّ هذا التعبير يدلُّ على أنَّه يعلم من كلِّ وجه يصحُّ أن يُعلم منه، بخلاف (يعلم)؛ فإنَّه من حيث اللفظ يصدق على علم الشَّيء من وجه دون وجه، كما في علم المخلوقين[5].

دلالةُ التَّنكيرِ في سِيَاقِ النَّفي:

النَّكرة إذا وقعت في سياق النفي؛ أفادت العموم، كما هو معلومٌ،

عِلْمُ اللهِ محيطٌ بالجُزْئيّاتِ كإحاطتِه بالكليَّات

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(4) ابن جزي، التسهيل: 1/144.
(5) السيوطي، قطف الأزهار: 1/558.

و"﴿شَيۡءٞ﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفْيِ، فتعمُّ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ الْعِلْمِ بِالْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ"(1)، لأنَّها "مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَامَّةِ"(2)، والمعنى: لا يخفى عليه شَيْءٌ، مِمَّا يَقُولُونَهُ في أَمْرِ عيسَى عليه السلام، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مُطَّلِعٌ عَلَى كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وَإِيمَانِ مَنْ آمَنَ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْمَاتُرِيدِيُّ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ من الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عَنِ الْخَلْقِ، فَكَيْفَ تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ عِنْدَكُمْ؟ وَكُلُّ هَذِهِ تَخْصِيصَاتٌ، وَاللَّفْظُ عَامٌّ، فَيَنْدَرِجُ فِيهِ هَذَا كُلُّهُ(3).

سِرُّ إيثار الإطنابِ على الإيجازِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

القرآنُ نزلَ على معهودِ الأمّيّين في الخِطابِ

عبَّرَ النَّظمُ عن جميعِ العالمِ بالأرضِ والسَّماءِ؛ "لأنَّهما المنظوران للمخاطَبَيْن، ولأنَّ الحسَّ لا يتجاوزهما، ولأنَّهما أَعْظَمُ مَا نُشَاهِدُهُ"(4)، فإنَّ الذي يعرفُه المخاطَبُ وقت نزولِ القُرآنِ هو الأرضُ والسَّماء، فهما قُطراه(5)، فقد "قُصِدَ مِنْهُ عُمُومُ أَمْكِنَةِ الْأَشْيَاءِ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْأَرْضِ: الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ بِمَا فِيهَا مِنْ بِحَارٍ، وَالْمُرَادُ بالسَّماء: جنسُ السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ الْعَوَالِمُ الْمُتَبَاعِدَةُ عَنِ الْأَرْضِ"(6).

وَجْهُ تخصيصِ الأرضِ والسَّماءِ بالذِّكر:

بيانُ عظمةِ علمِ اللهِ بذكرِ أعظمِ ما تشاهدُه الأعينُ وتعرفُه العقولُ

إنْ سألَ سائلٌ عن فَائِدَةِ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مَعَ أَنَّهُ لَوْ أَطْلَقَ ولم يقيِّد لشملَهما؟

فالجواب: "الْغَرَضُ بِذَلِكَ إِفْهَامُ الْعِبَادِ كَمَالَ عِلْمِهِ، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السَّماوات وَالْأَرْضِ أَقْوَى؛ لِأَنَّ الْحِسَّ يَرَى عَظَمَةَ السماوات وَالْأَرْضِ، فَيُعِينُ الْعَقْلَ عَلَى مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ عِلْمِ اللَّهِ عز وجل،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

وَالْحِسُّ مَتَى أَعَانَ الْعَقْلَ عَلَى الْمَطْلُوبِ؛ كَانَ الْفَهْمُ أَتَمَّ، وَالْإِدْرَاكُ أَكْمَلَ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ إِذَا أُرِيدَ إِيضَاحُهَا؛ ذُكِرَ لَهَا مِثَالٌ، فَإِنَّ الْمِثَالَ يُعِينُ عَلَى الْفَهْمِ"[1]، "وتخصيص الأرض والسَّماء؛ لكون ذكرهما أهول بالإضافة إلينا، وفيه دلالة على كلِّ شيء"[2]، و"لقصورِ عبادِه عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته"[3].

سِرُّ تقديمِ الأرض على السَّماء:

إن سُئِلَ عن سرِّ تقديمِ الأرضِ على السَّماءِ، فالجوابُ أن ذلك من باب التَّرقِّي من "الأدنى إلى الأعلى؛ ولأنَّ المقصود بالذِّكر ما اقترف فيها"[4]، و"لِيَتَسَنَّى التَّدَرُّجُ فِي الْعَطْفِ إِلَى الْأَبْعَدِ فِي الْحُكْمِ؛ لِأَنَّ أَشْيَاءَ الْأَرْضِ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، أَمَّا أَشْيَاءُ السَّمَاءِ؛ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بَعْضَهَا فَضْلًا عَنْ علم جَمِيعهَا"[5]، ولأنَّها موضع نظر المخاطبين؛ لأنَّ أعمالهم فيها، ولأنَّها موضع الكسب والسَّعي والعمل، ثُمَّ إنَّ المقام مقامُ تخويفٍ وتحذيرٍ لمن كفر بآيات اللّه، والذين وقعوا في ذلك هم من يسكنون في الأرض التصاقًا، ويعيشون تحت السَّماء افتراشًا.

الإيـــمـــاءُ إلى الـوعـيـدِ بسبب الآثـــامِ الـتـي في الأرضِ فالتَّرقي إلى مصدره

(1) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/136 - 137.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/412.
(3) القنُوجي، فتح البيان: 2/173.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»